ملف خاص

مفهوم الأدب الإسلامي عند محمد حسن بريغش

يُعد الأستاذ محمد حسن بريغش - عليه رحمة الله تعالى - من الباحثين البارزين المشتغلين بالأدب الإسلامي، وقد أغنى المكتبة العربية بمجموعة من الكتب والدراسات الطيبة الجادة قدم فيها رؤية خاصة لهذا الأدب المنشود، وكان من الصادقين في دعواه، المتحمسين في دفاعه عن هذا الأدب، الصرحاء في قول ما اعتقده الحق من غير مجاملة ولا مواربة وإن أسخط بعضا أو أثار حفيظة بعض.

كما يعد المرحوم محمد حسن بريغش من السابقين في الكتابة عن الأدب الإسلامي، إذ نشر منذ وقت مبكر عددا من الدراسات والمقالات على صفحات بعض المجلات كحضارة الإسلام، والشهاب والمجتمع، وغيرها من المجلات الأخرى، ثم أتيح له أن يجمعها في كتاب سماه **«في الأدب الإسلامي المعاصر : دراسة وتطبيق» صدرت طبعته الثانية عن مكتبة المنار في عمان عام ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .**

وهو كتاب يقع في قسمين : قسم نظري، تحدث فيه عن بعض القضايا والمسائل المتعلقة بالأدب الإسلامي من مثل : الكلمة الطيبة، والجهاد بالكلمة، وطريق الأدب الإسلامي، والأديب المسلم والالتزام، وفي دراسة التاريخ الأدبي، ومسار الأدب الإسلامي ومحاولات التزييف، وملاحظات على طريق الأدب الإسلامي، والصورة الحقيقية للأدب الإسلامي .

وأما القسم الثاني فهو في التطبيق، وقد درس فيه إنتاج بعض الأدباء، فتوقف في فن الشعر عند عدد من الدواوين المعاصرة لمحمد منلا غزيل، ونجيب الكيلاني، ومحمد الحسناوي، وأبي العاصم القاري، وتوقف في فن القصة عند كل من نجيب الكيلاني في «عمر يظهر في القدس» وعند إبراهيم عاصي ومجموعته «حادثة في شارع الحرية» وعند حنان لحام في مجموعتها «ميلاد جديد»

تعريف الأدب الإسلامي:

يرى محمد حسن بريغش أن تعريف الأدب الإسلامي ليس مشكلة ما دام تصوره واضحا، ذلك أن

بقلم : د . وليد قصاب

تعريف الشيء فرع عن تصوره، وهو يرى أن أساس جميع ما وضع من تعريفات لهذا الأدب يرجع - بشكل أو بآخر إلى تعريف الأستاذ محمد قطب وهو قوله :

«الأدب الإسلامي هو التعبير الجميل عن الكون والحياة والإنسان من خلال تصور الإسلام للكون والحياة والإنسان» (١) .

ثم يسوق مجموعة من التعريفات لمن كتبوا في الأدب الإسلامي، كالدكتور عماد الدين خليل، والدكتور عبدالرحمن باشا عليه رحمة الله، والأستاذ محمد المجذوب، والدكتور عدنان النحوي وغيرهم، ويرى أن هذه التعريفات جميعها : «إما اختصار، أو شرح لهذا التعريف أو إضافة، أو حذف، أو تعديل ...» (٢) .

ولكنه يرى أن هذا التعريف الذي ركز على عنصرين مهمين من عناصر الأدب هما «التعبير الفني» و «التصور الإسلامي» قد أغفل صاحب النص أي المؤلف، حتى ظن بعضهم - من خلال عبارات لمحمد قطب أساء فهمها - أن النصوص الإبداعية التي تتفق كليا أو جزئيا مع التصور الإسلامي - وهي لغير المسلمين - يمكن أن تجعل أدباً إسلامياً ما دامت تتوافق مع التصور الإسلامي .. (٣) .

على حين أن الأمر ليس كذلك، ولم يذهب إليه محمد قطب أصلا، بل كان واضحا عنده - في أكثر من موضع - أن الأدب الإسلامي لا يمكن أن يصدر إلا عن أديب مسلم، تشبعت روحه بالإسلام، وتكيفت تكيفا خاصا مع تصوراته عن الحياة والكون والواقع .

ويؤيد الأستاذ محمد حسن بريغش ذلك، ويؤكد هو كذلك - في غير ما موضع - ارتباط الأدب الإسلامي بقائله، وهو المسلم .

يقول مثلا : «الأدب الإسلامي أدب ينبع من الإسلام والمسلمين، له سماته، وله صوره، وله أشكاله وأساليبه .. (٤) .

وقد يلتقي الأدب الإسلامي مع هذا الأدب أو ذاك «في شكل ما أو مضمون ما، ولكنه يبقى إسلاميا، ويبقى ذاك غير إسلامي ..»(٥) .

ويخلص إلى أن «الأدب الإسلامي هو الأدب الذي يصدر عن المسلم، أما الأدب الذي يتوافق مع التصور الإسلامي - في ناحية أو أكثر - فهو أدب الفطرة السليمة، أو الأدب المحايد، أو الأدب الموافق للإسلام، ولكنه ليس الأدب الإسلامي قطعا ...»(٦) .

ومن ثم فإن التعريف للأدب الإسلامي عند بريغش هو : «التعبير الفني الجميل للأديب المسلم عن تجربته في الحياة من خلال التصور الإسلامي ...»(٧) .

لماذا لم يعرف التراث هذا المصطلح ؟

يعلل محمد حسن بريغش عدم وجود مصطلح الأدب الإسلامي في تراثنا الأدبي أو النقدي تعليلا منطقيا، وهو أن الحاجة إليه لم تكن ملحة، ذلك أن الإسلام كان هو الحاكم المهيمن، كان مرجعية القوم الفكرية، يعد كل خروج عليه - وإن في الأدب - انحرافا، أو فسقا، أو زندقة، بحسب درجة الخروج «فالمسلمون آنذاك، صغيرهم وكبيرهم، العالم منهم والأديب والمجاهد، والرجل البسيط، المرأة والرجل، كلهم كانوا مسلمين في اعتقادهم وفكرهم وسلوكهم، ولا يتصور أحد أمرا خارج الإسلام، فالإسلام منهج حياتهم، به يقيسون كل أمور حياتهم، لذلك كانت أحكامهم على كل الأمور مصبوغة بصبغة المصطلحات الفقهية، مثل : الزندقة والإلحاد، والتهتك ... إلخ . وسار الأدب - كما سارت جميع شؤون الحياة - وفق منهج الإسلام .. فالأدب الذي تركه المسلمون الأدب الإسلامي في عمومه، وما خرج منه عن مسار الإسلام أنكره النقاد والعلماء ..»(٨) .

وهكذا لم تكن حاجة لهذا المصطلح الذي استعمل حديثا، مصطلح «الأدب الإسلامي» لأنه متحقق فعلا في الأدب والفكر .

ولكن الأمور - في العصور الحديثة - اختلطت، والمصطلحات تعددت، ولم يعد الإسلام - للأسف - هو المهيمن على الحياة، ومنها الحياة الأدبية، غلبت على الأدب اليوم المذاهب الغربية، والمدارس العلمانية المجافية لروح الإسلام، انحرف الأدب عن مساره، فكان لا بد من التذكير بمرجعية الأدب العربي وأصوله الفكرية والعقدية، فكان لا بد من استعمال مصطلح يميزه ويوضح طبيعته، ويعيده إلى محضنه الذي تنكر له .

سمات الأدب الإسلامي :

أطال الناقد الأستاذ محمد حسن بريغش الكلام في أكثر من موضع على أن الأدب الإسلامي أدب متميز - شكلا ومضمونا - من غيره من الآداب الأخرى، وله

ملامحه الخاصة، وسماته الفارقة «لأنه أدب الإنسان المستخلف في الأرض، الحامل للأمانة العظيمة التي نأت السماوات والأرض والجبال عن حملها، وحملها الإنسان، ولذلك فإن سمات هذا الأدب ومميزاته هي سمات الأدب العالمي، وسمات الحضارة الإنسانية، وسمات المنهج الإلهي الخالد ...»[٩].

ومن الواضح من هذا الكلام أن الأستاذ بريغش يرى من السمات والملامح في الأدب الإسلامي ما يهيئه لأن يكون الأدب العالمي المنشود، وأدب الحضارة الإنسانية، إذ هو أدب هذا الدين العالمي الإنساني، فلا بد أن يحمل سماته ما دام منبثقا عنه .

وأما سمات هذا الأدب التي توقف عندها الأستاذ بريغش فهي :

١- **وضوح التصور**، لأنه «يستند إلى منهج رباني شامل، يفسر له حقيقة الألوهية، التي هي مصدر الخلق، ومصدر كل شيء ...» [١٠] . مما يحقق للأديب الذي يلتزم هذا المنهج الرباني الدقيق الشامل لكل صغيرة وكبيرة من شؤون الإنسان والحياة «بعدا شاسعا، ونظرة صحيحة إلى علاقاته مع الخالق عز وجل، والمخلوقات من حوله دون تخبط، وبذلك يطمئن ويستقيم ويمضي في حياته جادا للوصول إلى الدرجات العلا، ولا يترك أمر التصور إلى الفلسفات والاجتهادات، بل يتعلمه المسلم من وحي ربه عز وجل ..»[١١] .

وهكذا يتميز الأدب الذي يغترف من عقيدة الإسلام بوضوح التصور، وشموله، وتكامله، بعيدا عن التخبط، والعبثية، وحيرة الكائن البشري وضياعه في أدب جاهلي تصوره أمثال أبيات إيليا أبي ماضي في «الطلاسم» :

جئت، لا أعلم من أين، ولكني أتيت
ولقد أبصرت قدامي طريقا فمشيت
وسأمضي في طريقي، شئت هذا أم أبيت
كيف جئت ؟ كيف أبصرت طريقي ؟
لست أدري ... [١٢] .

٢ - ومن خصائص الأدب الإسلامي أنه **أدب الإنسان**، لأن المصدر الذي يصدر عنه هو منهج الإنسانية عامة، والرسالة التي جاءت لنبي البشر كافة، فهذا الأدب يتوجه للإنسان في كل مكان، ويصور حالات الإنسان في كل مكان وإنسانية الأدب الإسلامي تتميز من «الإنسانية» التي يتحدث عنها في المذاهب الوضعية التي تفتقر إلى التصور الشامل، البعيد عن العصبيات والأوضاع والظروف المادية ... [١٣] .

٣- ومن خصائص الأدب الإسلامي أنه **أدب الحياة** «الحياة الخاصة للسنن الكونية، وللإنسان فيها فاعليته التي تنفذ من خلال هذه السنن . أما الآداب الأخرى فإنها تصور الحياة على أنها من وضع الإنسان وحده ...»[١٤] .

الأدب الإسلامي «أدب الحياة المتوازنة التي لا يغفل جانبا من جوانبها، ولا يميل إلى صورة على حساب بقية الصور، لأنه يهدف إلى بناء الحياة الإنسانية على أسس قويمة نظيفة [١٥] .

٤ - ومن سمات هذا الأدب **امتداده الزماني والمكاني**، فهو «يتعدى في مساحته الزمانية والمكانية الآداب الأخرى» فكأنه إنساني في الزمان، إنساني في المكان، غير محدد بزمن تاريخي معين، ولا أرض جغرافية معينة .

إن الأدب الإسلامي «يتعدى الحدود، لأن المسلم يرى الأرض كلها ميدانا لنشاطه﴿ **هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور**﴾ [١٦] .

٥- ومن سمات الأدب الإسلامي **الأصالة**، وهذه الأصالة - التي تعني الرسوخ والثبات، وإحكام الرأي، والأساس المكين - «سمة ترتبط بتميز هذا الأدب، وتفرده عن بقية الآداب، وترتبط بالتزامه بتصور محدد شامل واضح ...» [١٧] .

ومن الأصالة كما يرى الأستاذ بريغش أن يتفرد الأديب المسلم، وأن يتميز بأمور كثيرة ليست عند غيره من الأدباء . هذا التميز يحقق له عدة أمور منها : الالتزام الإسلامي بأوسع مداه، والحرية، والواقعية، وتفهم لغة القرآن الكريم وتذوق جماله وجمال النصوص الإسلامية الأخرى .. [١٨] .

هذه هي سمات الأدب الإسلامي كما يراها الناقد بريغش، ومن الواضح أن بعض هذه السمات متداخل في

بعضها الآخر. كما أن الناقد لم يشر إلا إشارات عابرة، لا تكاد تلحظ - إلى خصائص شكلية تتعلق بالأدب الإسلامي، وهو الذي شدد النكير على بعض النقاد الإسلاميين الذين تحدثوا عن فسحة من الحرية في الأشكال الفنية، ورأوا فيها - إلى حد ما - نوعا من الحياد الذي لا يقع تحت طائلة التحريم.

ولكن ما يسجل للناقد بريغش محاولته الدائمة الربط بين الأدب والعقيدة، بين الفن والدين الذي يغترف منه، فبدا واضحا أن سمات هذا الأدب الإسلامي - كما حددها الناقد - مستمدة من طبيعة العقيدة الإسلامية نفسها.

الأدب الإسلامي بين الشكل والمضمون:

يرى بعض النقاد الذين كتبوا عن الأدب الإسلامي، وحاولوا التنظير له، أن الأشكال الفنية ليست هاجسا مؤرقا في هذا الأدب، ذلك أن الشكل الفني نام، متطور، متحرك باستمرار، فهو لا يعرف صورة واحدة ثابتة.

وإن الإسلام لم يحدد للمبدعين - من شعراء وكتاب وقاصين وغيرهم - شروطا فنية معينة للإبداع، وهذا يكشف عن إدراك عميق لطبيعة الشكل وتطوره عبر العصور، كما يكشف عن وعي حصيف بأن كل تحول في الحياة الاجتماعية قد يؤدي إلى تحول في الذوق الجمالي.

يقول محمد قطب في التعبير عن هذه الفكرة: الفن الإسلامي ليس مقيدا بطرائق تعبيرية معينة .. فله أن يختار من الموضوعات والطرائق ما يشاء، ولكنه مقيد بقيد واحد أن ينبثق عن التصور الإسلامي للوجود الكبير، أو - على الأقل - ألا يصطدم بالمفاهيم الإسلامية عن الكون والوجود[١٩].

ولا شيء يكفل لأدبنا الإسلامي أن يساير العصر، وأن يعبر عن نبض الحياة، وأن يكتسب العمق والحيوية، مثل الانفتاح على التجارب الجديدة والاستفادة مما هو حكمة فيها.

وقد أدركت طائفة من المبدعين الإسلاميين ذلك فخاضوا التجربة الإبداعية الأدبية، مستمدين من التصور الإسلامي، مدركين تميزه من غيره من التصورات، وهم - مع هذه الأصالة والتميز - «لا يجهلون ما وصلت إليه الآداب العالمية من آفاق وصور، ولا يتجاهلون ما اصطلحت عليه من شروط لمختلف الفنون، ولا ينكرون ما تعارف عليه النقاد والأدباء لكل لون أدبي، ولا يقطعون ما بينهم وبين العطاء العالمي، والإبداع الأدبي في مختلف الأشكال الأدبية والفنون الإبداعية ..»[٢٠].

وعلى أن هذه الطائفة الواعية المدركة التي يشيد بها الناقد محمد حسن بريغش - لا ترى شأن غيرها ممن يشير إليهم بريغش - ضرورة التقيد بكل ما عرفه الأدب العالمي، فهؤلاء «لا يتعبدون ولا يقدسون هذه التجارب، ولا يغفلون عما وراءها من فلسفات ومعتقدات تدخلت في المضمون والشكل، وأثرت في توجيه هذه الأشكال إلى صور وطرق تتفق مع تصوراتها وفلسفتها ...»[٢١].

وإذا كان نقاد من أمثال نجيب الكيلاني عليه رحمة الله، وعماد الدين خليل يرون أن الأشكال الفنية هي - بشكل عام - محايدة، وهي كالأوعية والوسائل لا يدخلها حل ولا تحريم في حد ذاتها، فإن محمد حسن بريغش لا يرى هذا الرأي، وهو شديد التحفظ عليه.

يرى الدكتور نجيب الكيلاني فيما نقل عنه بريغش: أن هنالك قيما أو شروطا فنية وجمالية معروفة ومشتركة بين الأمم والحضارات، ولكل لون من ألوان الأدب قيمه الفنية، وشروطه التعبيرية، ولذلك لا غنى عنها للأديب، بل يرى أن العمل الأدبي لا يقوم بدون التقيد بهذه الشروط، والسير وفق هذه القيم لأن التراث الجمالي العالمي ملكة شائعة كالدين والفلسفة والعلوم ..[٢٢].

ويرى الدكتور عماد الدين خليل أن صقل المواهب وتنمية المهارات والقدرات الإبداعية لا يتحقق إلا بالإطلاع على الأدب الغربي، ومتابعته يوما بيوم بنهم لا يعرف شبعا ولا ارتواء، بالإطلاع على كل ما هو أدبي مما يصدر في شرق أو غرب، وإذا لم يرفد المعنيون بالأدب قدراتهم الإبداعية ومواهبهم الجمالية بمتابعات مستمرة في ميادين الآداب والفنون، فإنهم - يقينا - سوف يصابون بالتحجر، ويكفون عن الإبداع ..[٢٣].

ولكن محمد حسن بريغش - كما ذكرت - لا يبدو متحمسا لمثل هذه الآراء، إذ هو يرى أن الأشكال الفنية - كالمضامين - غير حيادية، وأن هذه «المفاهيم الجمالية، والأطر الفنية، والصيغ التعبيرية، التي يراها بعضهم ملكة مشتركة حيادية، هي عند الآخرين صورة مرتبطة بالتصور الذي يتمثل بالمضمون أيضا»، وأنه - في الأدب

خاصة، والفنون عامة - لا يوجد حياد في الشكل أو المضمون، فلو أخذنا المدارس الفنية الحديثة الغربية لرأينا أنها بدأت بالتخلي عن الموضوع - المضمون - بدءا من عدم الاكتراث به في المدرسة الانطباعية، وانتهاء بالاستغناء عنه تماما في المدرسة التجريدية...» (٢٤) .

ويقول في موطن آخر : «إن طبيعة الموضوع، ومكونات الكاتب وعقيدته وخصائص اللغة، والموضوع والمجتمع، كل ذلك يؤثر في الصياغة والأسلوب والشكل، ولا يمكن أن تكون «التقنية» - كما سماها الدكتور عماد الدين خليل - مسألة عامة لكونها تحمل طابعا حياديا، بل هي متشابكة ومتأثرة بالموضوع وبقية العناصر، وليست حيادية، ولذلك فإن كل أدب يختار أسلوبه وصياغاته، وألفاظه وطريقته، ويضع الشروط التي يراها مناسبة لخصائصه الأساسية ..» (٢٥) .

ولكن محمد حسن بريغش الذي أطال الكلام على هذه المسألة لم يستطع أن يقدم دليلا تطبيقيا واحدا، أو يحدد المقصود بالأشكال الفنية، أما طريقة الأسلوب والصياغة والفرادة التي تتميز بها كل لغة أو كل موضوع على حدة فليست هي المقصودة بحيادية الأشكال الفنية، وما أظن أن الدكتور عماد الدين خليل وأمثاله ممن ذهبوا هذا المذهب قد عنوها، إذ لا شك أن هذه تختلف من ثقافة إلى أخرى، ومن أدب لآخر، بل من شخص لشخص في دائرة الأدب الواحد نفسه .

وفي الختام أقول :

إن محمد حسن بريغش كان من الدعاة المتميزين إلى الأدب الإسلامي، وقد قدم خدمات جليلة لهذا الأدب، وكانت له فيه آراء نفيسة سبق بها غيره، وكان شديد الحماسة لهذا الأدب الهادف النظيف، يرى فيه المعبر الحقيقي عن هوية الأمة، بل عن فطرة الإنسان السوية في كل مكان وزمان، ولذلك كان حريصا - كل الحرص - على تنقيته من جميع الشوائب التي تعتري نماذجه الإبداعية أو محاولات التنظير النقدية، وعلى إبراز خصوصيته وتميزه من الآداب الأخرى .

وقد يغلو في هذا الحرص حتى يحمله ذلك على أن يضيق واسعا حينا، أو يشتد على مخالفيه في الرأي حينا آخر، فيرى في الاستفادة من الدراسات الغربية الحديثة نوعا من الانبهار بالآخر، أو الوقوع تحت سلطانه .

وعلى الرغم من ضرورة العودة - كما يقول بريغش - إلى مصادر الأدب الإسلامي الأولى، وإلى نماذجه المختلفة عبر تاريخه الطويل فإن هذا وحده - في رأينا - لا يكفي، ولا شيء - شرعيا ولا عقليا - يمنع من الاستفادة من تجارب الآخرين الإبداعية والنقدية في شرق وفي غرب، من أجل التنظير تنظيرا عميقا للأدب الإسلامي ما دام كل من المبدع والناقد مجندا بوعيه الإسلامي الذي يجعله يدرك ماذا يأخذ وماذا يدع . ■

الهوامش:

(١) منهج الفن الإسلامي، لمحمد قطب، ص٦ .
(٢) الأدب الإسلامي : أصوله وسماته، لمحمد حسن بريغش، ص ١٠٧ .
(٣) السابق، ص ١٠٨ .
(٤) في الأدب الإسلامي المعاصر، لمحمد حسن بريغش، ص ٦٦ .
(٥) السابق نفسه .
(٦) الأدب الإسلامي : أصوله وسماته، لمحمد حسن بريغش، ص ١١٣ .
(٧) السابق، ص ١١٤ .
(٨) السابق، ٤٣ - ٤٤، ١٠٣ .
(٩) السابق، ١١٤، ١١٥ .
(١٠) السابق ١١٥ .
(١١) السابق ١١٦، ١١٧ .
(١٢) السابق ١٢١ .
(١٣) السابق ١٢٦ .
(١٤) السابق ١٣٤ .
(١٥) السابق ١٣٧ .
(١٦) السابق ١٥٢، ١٥٣ .
(١٧) السابق ١٦٤ .
(١٨) السابق ١٦٤ - ١٧٣ .
(١٩) منهج الفن الإسلامي، ص ٢١ .
(٢٠) الأدب الإسلامي : ص ٩ .
(٢١) السابق نفسه .
(٢٢) الأدب الإسلامي، ص ١٤، نقلا عن «مدخل إلى الأدب الإسلامي» للدكتور نجيب الكيلاني، ص ٣٣ .
(٢٣) السابق، نقلا عن «مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي» للدكتور عماد الدين خليل، ص ٧٥ .
(٢٤) الأدب الإسلامي، ص ١٥ .
(٢٥) السابق، ص ٧١ .